تربيـــة لؤلؤية

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كتبتْ إليّ سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبي وطريقتي :

. . . أما بعد فهذا الذي كنا ظننّا وظننّتْ ، فاقرأ الفصل الذي انتزعته لك من مجلة . . . وستعرف منه وتنكر ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى . . . وتجد فتاةَ اليوم على ماوقع بها من الظِنّة ، وكثر فيها من أقوال السوء — لا تَشْمس على الريبة ولا تريد أن تنتفي منها ، بل هي تعمل لتحقيقها ، وتبغي مع تحقيقها أن يَتَسالمَ الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ماشاءت ، ويسوّغوها مقارفة الاثم ، ويُقِرّوها على منكراتها .

أما إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلات منّ أمسنا الذاهب بلا فائدة ، فان فتياتنا المتعلمات من يومنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تكْسَد ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلمة لم تكد تَنْفُق ومعها الرذيلة ، ولتاجرٌ أمّيّ ظاهر الاسم تتحرك سوقُه وتحيا ، خير من تاجر متعلم نجس الاسم قد ماتت سوقه وخمدت ، فما يتنفّس من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكَمَتْه المتعلمات منا كن بين الشرق والغرب كالسَّيخَة النبّاشة من الأرض ، طَرَف لها بالقلاة وطرف بالبحر ؛ فهي رمل في ماء في ملح ، لا تَخْلُص لفساد ولا صحة ، فاعتبر هذه وهذه فستجدها بحكاية واحدة ، أصلاً وطبق الأصل . ؟

* * *

وقرأتُ الفصل الذي أومأت اليه السيدة وكان في كتابها فاذا هو للكاتبة زعم (أنها ممن رفعن علم الجهاد لحرية المرأة) وإذا في أوله :

« كتبت آنسة أديبة في عدد سابق من . . . الأغر تقول : « أجلْ ، لنفتشْ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فان أخطأناهم أزواجا فلن يخطئهم أصدقاء . . . » وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ويطرقان نفس السبيل (كذا) التي اختطتها الآنسة الجريئة في غير حق ، الثائرة في ترق ، ثم قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثائرة في حيوية صارخة . . . فزعت لأن قاسم أمين عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، وولي الدين يكن عندما جاهر بعده في سبيل السفور ، وهدى شعراوي عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ماظنت وماظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور الى حد أن تقف آنسة مهذبة تكشف عن رأسها تبكي وتستبكي سواها معها من أجل الزواج . . . »

* * *

وأنا فلست أدري والله مِمّ تعجب هذه الكاتبة وإني لأعجب من عجبها وأراها كالتي تكتب عبثاً وهزلا وهُوَ يني مُظهِرةً الجدّ والقصد والغضب . أنّ أطْلِق للنساء أن يَثِرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان في هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلت في حريتها ، فامتدّ بها أمدها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقٌ من أخلاق المرأة يسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً في غير مداراة ولا حذق ولا كياسة يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله ، ثم وقف على رغمه في الطريق منكسراً مما به من اللهفة والوثبة يتوجع ، يتنهد ، يتلدّع بهذه المعاني وهذه الكلمات — أنّ وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جرى عليكِ وكنتِ حرة ، وتَزَعْزَعتِ وكنتِ ثابتة ، وأخفتِ وكنتِ عفيفة ، وتَعَهّرتِ وكنتِ طاهرة . أفلا تقول لها : سَفَرتْ أخلاقُكِ إذ كنتِ سافرة بارزة ، وضاع حياؤكِ إذ كنتِ مُخلاّة مهملة ، وَغَلَوتِ إذ كنتِ في البالغة من البدء . أفلا تقول لها : لقد تلطّفتِ فجئتِ بالمعنى المجازيّ لكلمة (العُرى) ولقد أبدعتِ فكنتِ امرأة ظريفة اجتماعية مُخيلَة للشعر والفن ، وحقّقتِ أن واجب الظريفة الجميلة إعطاءُ الفن غذاءً مِنْ ، ومن ، ومن لحمها . . . . .

نعم إن قاسم أمين — رحمه الله — لم يكن يظن . . ولكن أما كان ينبغي أن يظن أن بعض الصواب في الخطأ لا يجعل الخطأ صوابا ؟ بل هو أحرى أن يُلبّسه على الناس فيُشبّهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون اليه ويأمنون جانبه فينتهي بهم يوماً الى أن يَنتسِف خطؤه صوابَه ، ويغطيَ باطلُه على حقه ، ثم تستطرق اليه عوامل لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد اليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدُّ له في المدى مداً . ثم تنتهي هي أيضاً الى نهايتها ، وتؤول الى حقائقها ؛ فاذا كل ذلك قد

داخل بعضه بعضاً ، واذا الشر لا يقف عندما كان عليه ، واذا البلاء ليس فى نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد فى نية قاسم أمين ، ولا نزعم أن له خفيّة سوء أو مُضْمَر شر فيما دعا اليه من تلك الدعوة ، ولكنى أنا أرتاب فى كفايته لما كان أخذ نفسه به ، وأراه قد تكلّف مالا يُحسن ، وذهب يقول فى تأويل القرآن وهو لا ينفذ الى حقائقه ولا يستبطن أسرار عربيّته ، وكان مناظروه فى عصره قوماً ضعفاء فاستلأم بضعفهم لا بقوته ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت فى ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء غيّرْن وبدّلْن ؛ فلما أطعنه وبدّلن وغيّرْن ، وجاء الزمن بما يفسّر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات المتخيّل أو المتشيّع — إذاً معنى التغيير والتبديل هو ما رأيتَ ، واذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر ، واذا المرأة التى ربحت الشارع هى التى خسرت الزوج ! واذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة ، ولكن نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة كأنها جريمة عوقبتْ على فساد سياستها ؛ وهى فى بيتها ، ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها .

كانوا يحتجون لنفى الحجاب بالفلّاحات فى سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعى فى ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهُنَّ من كونهن لسن فى المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة . ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعى فطرى أساسه الخلط فى الأعمال لا التمييز بينها ، والاشتراك فى شىء واحد ، هو كسب القوت لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التى ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالة التصرفة بها ؛ ويحسبْنه توسعاً من الطبيعة فى الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبة منها فى أن تُحدّ بحدودها ويُؤخذ منها العالم كله بما فيه ، وتُعطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها وتخرجها الى النور والحرية فانما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاض ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خشباً لا ثمراً ، ومنظرَ شجرة لا شجرة ! لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى فى قانون حياتها ، لا فى قانون حجابها . أفليست كذلك جذور الشجرة الانسانية ؟

كل ما يتغير يسهل تغييره على من شاء ، ولكن النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتما مقضياً كما يُقْضَى فلن يسهل تبديلها ، ولا تحويلها ولا رَدُّها أن تقع . وقد أخطأ بجاعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبّبو للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسه الرائحة الذكية فى البخور . . . !

* * *

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءُ سعرها فى الاجتماع ، وصونُها من التبذّل الممقوت لضبطها فى حدود كحدود الريح من هذا القانون الصارم ؛ قانون العَرَض والطلب والارتفاعُ بها أن تكون سلعة بأثرة ينادَى عليها فى مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيلة ، الخدود الوردية ، الشفاه الياقوتية ، الثغور اللؤلؤية ، الأعطاف المرتجّة ، النهود الـ . . الـ . . أو ليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب الى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هـــذا فانهن لا يظهرن فى الطرق إلا لتنادى أجسامُهن بمثل هذا ؟ وهذه التى كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجا ، وتفتّش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى فى مخزيات هذا التطور ، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَموحاً مطروقة ، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو اليها الخطوة القايلة . . .

ما هو الحجاب الشرعىّ إلا أن يكون تربيةً عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصّها الرحمة ؛ هذه الصفة النادرة التى يقوم الاجتماع الانسانى على نزعها والمنازعة فيها مادامت سنة الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظ المرأة به منزلتها ، وتؤدى فيه عملها ، وتكون مغرساً للأنسانية وغارسة لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليد الحيوان تولد كلها : إما ساعية كاسبة لوقتها ، وإما محتاجة الى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضى فتكدح لعيشها ؛ إذ كانت غاية الحيوان هى الوجود فى ذاته لا فى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفل لا فى الأعلى . غير أن طفل المرأة يكون فى

بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك سنةً بكل شهر . فهل الحجاب إلا قصرُ هذه المرأة على عملها لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؛ وهل قصرها فى حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمة ذات ولد ، تترك ابنها فى أيدى الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية .. وتمضى ذاهبة عن يمين الصباح ويمضى زوجها عن شماله .. وقد رأيت هذا الطفل مرة فرأيته شيئاً جديداً غير الأطفال ، له سمة روحانية غير سماتهم ، كأنما يقول لى إنه ليس لى أب وأم ، ولكن أب رقم (١) ، وأب رقم (٢) ..

* * *

وقد كنت كتبت كلمة عن الحجاب الاسلامى قلت فيها : « ما كان الحجاب مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يخالطها السوء أو يتدسس إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب ، وليس يؤدى شىء إلا أن تكون المرأة امرأة فى دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى . »

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المتعبدية وهو كالصدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها فى الحجاب تربية لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازن والاستقرار والهدوء والاضطراد وأخلاق هذه المعانى وروحها الدينى القوى الذى ينشىء عجيبة الأخلاق الانسانية كلها ؛ أى صبر المرأة وإيثارها . وعلى هذين تقوم قوة المدافعة ، وهذه القوة هى تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهى سر المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة . إنها فيها تشبه أخلاق نبى من الأنبياء .

وقد محق الدين والصبر ، وتراخت قوة المدافعة فى أكثر الفتيات المتعلمات ، فابتلين من ذلك بالضجر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمعنى العفن فى الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية فى ذاتها ، وأنه لا يشدها ويقيمها إلا الصفات السلبية ، وملاكها الصبر فروعه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده . إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطىء المرأة فى شىء خطأها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الأيجاب ، وتمردها على صفات السلب كما يقع لعهدنا ، فان هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها كما نرى فى أوربا ، وفى الشرق من أثر أوربا . فمن هذا تلقى الفتاة حياءها وتبذؤ وتفحش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعاً فبالمعانى وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر فى هذه وتلك ؛ وكانت الاستجابة لهذا مافشا من الروايات الساقطة والمجلات العارية ؛ فان هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط .

وعادت الفتاة من ذلك لا تبتغى إلا أن تكون امرأة رواية ؛ إما فوق الحياة ، وإما فى حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر ! وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ، فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛ فانسلخت من كل شىء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير فانسلخت من إنسانية الغريزة

* * *

أما إن غلظة الرجل فى المرأة لا تكون إلا من غلظة المرأة فى نفسها ، وهى قد أعطيت فى طبيعتها كل معانى حجابها ؛ فاحساسها محتجب مختبىء أبداً كأنه فى إتب [1] وملاءة وبرقع وأفكارها طويلة اللازمة لها لا تكاد تتركها كأنها منها فى بيت ، وطبيعة الحذر لا تبرحها كأنها الحارث الثابت فى موضعه القائم بسلاحه على حفظ هذا الجنس الجميل ؛ وطول التأمل موكل بها كأن عمله مصاحبة وخدمتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا فى داخلها هى قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى ؛ وضغطة الحياة طبيعية فيها حتى لا يساورها من الهموم إلا صار كأنه من عادتها والتى تمزقها الحياة كلما ولدت لا تكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها .

فخروج المرأة من حجابها خروج من صفاتها ، فهو إضعاف لها ، وتضريبة للرجال بها ، وماذا تجدى عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ، فيكون حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكون إغفالاً ليعهد الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول

(١) الاتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الريفيات (اللس)

السقوط ومبدأ الانقلاب والتحوّل . وليس الفرق بين امرأة نفور من الريبة ، شموس لا تطالع الرجال ولا تطمعهم ؛ وبين امرأة قرور على الريبة ، هلوك فاجرة — إلا حجابَ الحذر أسدلَ على واحدة ، وانكشف عن أخرى .

وإذا قرّتْ المرأة فى فضائلها فانما هى فى حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةَ غير الرجل ؛ فهو مسمّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأى لا يدركون مذهبه ، ولا يحققون ماينتهى اليه ، وينفذون فى حكمهم على الظاهر لا على البصيرة — هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكساء والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النفسية شىء يصنعه الحائك والبانى والمستعبد ، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ، فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوةَ عقل فتكونَ قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوةَ عاطفة لتكون قوة سلب ؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب صابر هادىء منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعى تتم به الطبيعة .

وينبغى أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً ، وزيادة لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحةً فى معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعاً على طاعته كصوت الأم فى بيتها .

* * *

أيتها الفتاة ، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا فى مظاهرها التى تكذب أكثر مما تصدق ؛ فساعدى الطبيعة واحجبى أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين منها ومنك ، فيسرع انقلابه إليك وبحثه عنك ؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيرك .

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه أن يزجف بك الظن ويسىء فيك الرأى ، وعقابك على ذلك ماأنت فيه من الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم . ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعى

فى الأفق الدولى

حديث الحرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الحرب المقبلة ، وعن أسبابها المحتملة ، وعن مواطن نشوبها والدول التى قد تشترك فيها . وكلما اظلم أفق السياسة الأوربية ، وتفاقمت مشكلة من المشاكل ، تكرر حديث الحرب ؛ وازداد المتشائمون تمسكاً باعتقادهم فى قرب نشوبها . ومنذ أشهر نشهد فى جو السياسة الأوربية ما ينذر فعلاً باضطراب العلاقات الدولية وتوترها ؛ فمن محالفات سياسية وعسكرية تعقد بين مختلف الدول ، ومن اعتمادات مالية ضخمة تقررها معظم الدول لتعزيز قواتها واستكمال أهبتها الحربية ، ومن تصريحات سياسية هنا وهناك تحمل على التشاؤم والجزع . ولقد كشفت الأزمة النمسوية التى وقعت منذ أسابيع قلائل من جراء الثورة التى أضرمها دعاة التحريض الألمانى لقلب النظام فى النمسا والتمهيد لأعلان انضمامها الى ألمانيا عن مبلغ توتر أعصاب الدول العظمى ، وعما يجثم فى ثنية المشكلة النمسوية من خطر على السلام الأوربى ؛ ولم تحجم أيطاليا فى هذا الظرف الدقيق عن حشد جنودها على حدود النمسا الجنوبية استعداداً للطوارىء . فاذا ذكرنا أن الحرب الكبرى أضرمت شرارتها الأولى فى تلك الربوع ، أى فى امبراطورية النمسا والمجر القديمة ، استطعنا أن نقدر طرفاً من العوامل التى تملى بحديث الحرب ونبوءاتها .

على أننا مع تقديرنا لخطر هذه الظواهر المزعجة فى سير الحوادث الأوربية ، نخشى أن يكون خطر الحرب جاثماً فى جهة أخرى غير أوربا القديمة ؛ ففى الشرق الأقصى تقع حوادث ذات مغزى خطير ؛ وهذا التلاحم المستمر بين اليابان وروسيا يبطن من الخطر على السلام أكثر مما يدلى به ظاهر الحوادث . ولنلاحظ أولاً أن هناك خصومة تاريخية غالبة بين اليابان وروسيا منذ الحرب الروسية اليابانية فى سنة ١٩٠٤ ؛ وأن بينهما منافسة قديمة مستمرة مدارها التنازع على النفوذ فى الصين واقتسام المصالح الصينية ؛ وهما يلتقيان فى الصين فى مناطق هامة كثيرة فى منتهى الأهمية . وفى الأنباء الأخيرة أن حادثاً جديداً قد وقع فى